الجزائر ـ ٢ ـ

من سيكون دوره الآن؟

فصل من رواية جزائرية جديدة

أحلام مستغانمي

تصدر مطلع الشهر القادم عن «دار الآداب» روايةٌ جديدة للكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي عنوانها: «فوضى الحواسّ»، وهي الجزء الثاني من رواية «ذاكرة الجسد» التي لقيتْ رواجاً كبيراً. فيما يلي مقاطع من فصلٍ يتناول قتل الرئيس بوضياف، واغتيالَ الصحفيين والمثقفين في الجزائر.

مرّ شهران..

كنت خلالهما أكتفي بوجبات الأحلام، ورشفات حبر سريعة، وأترك للآخرين ولائم الضّجر.. وقهوةَ النميمة.

فمنذ الأزل، كانت عقدة النّار هي كيف التوحّد مع الماء. وأنا لم أتقن يومًا فنَّ هدر الوقت والجلوس إلى النّساء. كنت سيّدة الحزن، وكنّ خادماتٍ لدى الفرح.

وأذكر، الآن، تلك المقولة الجميلة: «إنّ عظمة النّار هي في كونها تحرق.. وتحترق». وأفهم لماذا كنتُ، منذ الأزل، لا أجالس غير الرّجال.

فمع النّساء، لم أكن أحرق سوى أعصابي..!

وبرغم ذلك، قَبِلْتُ يومَها حضورَ دعوة لدى إحدى القريبات، احتفالاً بنجاح ابنتها في امتحانٍ ما.

كنّا في نهاية حزيران. وكانت النّساء من حولي يتبادلن أحاديث حول قهوةٍ.. وأصنافٍ من الحلوى. وكنت أهرب من ثرثرتهنّ، وأسترق النّظر أحيانًا إلى جهاز التلفزيون، الذي كان مفتوحًا.. لمزيد من الضجيج.

رحت أتابع، بين حين وآخر، خطابَ بوضياف الذي كان التلفزيون ينقله مباشرة، من دار الثّقافة في عنابة. ولكن، لم يكن يصلني منه الكثير. فاكتفيت بتأمّله، لأوّل مرّة، دون أن أدري أنّني أتأمّل ذلك الرّجل في حضوره الأخير.

حتّى دون صوت، كان بوضياف يخترقك بعينين حزينتين، لهما ذلك الحزن الغامض، الذي يجبرك على أن تثق بما يقوله.

عينان تعرفان تدرُّبَ الوطن على الغدر منذ الأزل. عينان تغفران وتنسيان، مذ داهمهما حزنُ المنافي، وإحساسٌ عميق بخيانة الرّفاق. فلم يعد يغادرهما حزنُهُما، ولا عادتا تقويان على الضّحك.

وكان بوضياف في وقفته الأخيرة تلك مُوليًا ظهرَهُ إلى ستار القدر.. أو «ستار الغدر».

يبدو واثقًا، وساذجًا، وشجاعًا، وبريئًا.

فكيف لا يحصل له.. كلُّ الذي حصل؟

لا أدري عن أيّ شيء كان يتحدّثَ لحْظَتَها. أذكر أنّ آخر كلمة قالها كانت «الإسلام..».

وقبل أن ينهي جملته، كان أحدهم، من المسؤولين عن أمنه، يخرج إلى المنصّة من وراء السّتار الموجود على بعد خطوة من ظهره، ويلقي قنبلة تمويهيّة.. جعل دويُّها الحضورَ ينبطحون جميعهم أرضًا.

ثمّ راح يُفْرغ سلاحه في جسد بوضياف، هكذا مباشرةً أمام أعين المشاهدين، ويغادر المنصّة من السّتار نفسه.

* * *

كنّا في التاسع والعشرين من حزيران.

كانت السّاعة تشير إلى الحادية عشرة وسبع وعشرين دقيقة.

وكانت الجزائر تتفرّج مباشرةً على اغتيال أحلامها.

كان الجميع ينتظر سيّارة الإسعاف التي لم تأتِ.

وكان عَلَمُ الجزائر، الموجود على المنبر، قد أصبح مصادفةً غطاءً لرجل ينام أرضًا. جاء ليرفع رؤوسنا.. فجعلْنا أحلامَهُ تنحني في بركة دم.

ذلك كان قَدَر بوضياف مع حزيران الوطن.

منذ أربعين سنة، في الشّهر نفسه، اقتاده رفاقه إلى سجون الصّحراء.

ثمّ جاء به الوطن، كي يحكمه 166 يومًا. وها هو يكافئه ذاتَ حزيران.. بكَفَنٍ!

وابل من الرّصاص، مقابل خمسة أشهر من الحكم.

لم يمهلوه سبعة أيّام فقط، وهي كلّ ما كان يلزمه كي يصل به العمر حتّى 5 يوليو، عيدِ الاستقلال الذي كان يريد أن يهدي فيه إلى الجزائر خطابَهُ المنتظر.

فجأةً، توقّف بنا القدر، كما تتوقّف عجلاتُ سيّارة في الوحل، وهي في طريقها إلى مشوار جميل.

فقد كان كل شيء جاهزًا كي لا يُخْلف بوضياف هذه المرّة موعدَهُ مع الموت، بما في ذلك سيارة الإسعاف التي أضاعت طريقها إلى المستشفى وهي تنقله.. فكان آخرَ مَنْ يصل من المصابين.

يومَ موت بومدين، قال بوضياف: «لقد كنتُ دائمًا على خلاف مع بومدين في كثير من القضايا. ولكنْ عندما شاهدتُ جنازته، شعرتُ بأنّني ظلمته. فلا يمكن لرجل يشيّعه شعبُهُ بهذا القَدْر من الفجيعة أن يكون قد أخطأ في حقّ الوطن».

أولئك الذين كانوا يطلقون الزغاريد من الشّرفات عند سماع الخبر، ويعلنون دون خجل أمام التلفزيون شماتَتَهُم بموته، ويتسابقون الى المساجد، متصدّقين بولائم «الكسكسي» احتفالاً بدمه المسفوك...

والأربعون حراميّاً، الذين كانوا يسعدون سرّاً أمام جثمانه، ويفركون أيديهم فرحًا بغنائم يُمْكنهم مواصلةُ التناوب على السطو عليها لسنوات أخرى... أولئك الذين ظنّوا أنّ جثمانَهُ قد يمرّ سهوًا في غفلة من الوطن، وأنّ موته قد يكون حادثًا لا حدثًا في تاريخ الجزائر...

تراهم توقّعوا له.. جنازةً كتلك؟

انهيار صاعق للأشياء.

وطن يُغْمى عليه، يدخل حالة من الهستيريا، يبكي رجاله كالأطفال في الشّوارع، يهتفون «إنّا هنا». تخرج نساؤه ملتحفاتٍ بالأعلام الوطنيّة، حاملاتٍ مع موتاهنّ صورةَ رجلٍ لم يَحْكم كي تغطّي صورُهُ الشوارعَ... إنما كي تغطّي صورة الجزائر صورَ القتلى الذين يملأون صفحات الجرائد.

رجل لم يمشِ يومًا باطمئنان على تراب الوطن، تحمله القلوب، أمواجًا بشريّة نحو التراب.

رجل يمضي.. ويَتْركنا من جديد ليُثْمِنا. نردّد خلفه: امْضِ «إنّا هنا». فيواصل التاريخ بعدنا:

«نم.. ولا تهتمّ أبو ناصر.. إنّهم هنا!».

* * *

لم أغادر يومها البيت كي أشارك في تشييعه. كان حزني أكبر من أن أتقاسمه مع أحد.

ولكن في مكان ما من أعماقي، كنت سعيدة من أجله.

هذا الوطن الذي لم يُهْدِ إليه حياةً على قياس أحلامه، أهدى إليه جنازةً على قياس حياته.

جنازةً لرجل عَبَرَ الحُكْمَ مشيًا على الأقدام.. 166يومًا لا

غير. ولكنها جنازة ليست في متناول أولئك الذين حكموا أوطانًا رُبْعَ قرن بجيش من المُخْبِرين، متسلّطين على شعوبٍ طَحَنَها الذلُّ الأزليّ.

هؤلاء الواثقون من ولاء الدبّابات لهم، عليهم أن يجرّبوا الموت مرّة ليختبروا رصيدهم في جنازة.. فيذهلوا!

* * *

بين أخي الأصولي، وزوجي العسكري، والصحافي الذي أحبّ، كيف أعيش خارج دائرة الذعر؟!

أسبوعًا بعد آخر، موتًا بعد آخر، كنت أعي أنّني أعيش عمرًا قيد الإعداد. تصنعه تارةً أحداثٌ كبرى، وتارةً أحداثٌ هامشيّة أخرى.

في كلّ لحظة، لأيّ سبب كان، يمكن لقَدَري أن يأخذ مجرًى آخر.

فأنا امرأة تعيش بين رجالٍ ثلاثة، حياتُهُمْ معلّقةٌ برصاصة القدر، ويتصرّف بأعمارهم وأقدارهم أولئك الذين يهندسون الموتَ والرّعبَ كلَّ يوم في هذا الوطن.. ولا أدري متى سيسقط أحدُهُم قتيلاً بتهمة، أو يسقط الآخرُ بنقيضها.

ولذا أصبحتُ مسكونةً دائمًا بهاجس الصّدمة، مهووسةً بهذا الموت المباغت الذي أراه يحوم حول كلّ مَنْ يحيطون بي.

بين أخي الأصوليّ الذي تطارده السّلطة، وزوجي العسكريّ الذي يتربّص به الأصوليّون، وذلك الصّحافي الذي أُحبّ، ويصفّي الاثنان حساباتهما وخلافاتهما بدمه، كيف يمكنني أن أعيش خارج دائرة الذّعر؟

منذ سقط بوضياف قتيلاً مباشرةً على شاشة التلفزيون أمام ملايين النّاس، كان واضحًا أنّ موسم الصّيد قد فُتح، وأصبح السّؤال بعد كلّ موت: مَنْ سيكون دوره الآن؟

كنتُ أحاول أن أستعين على الخوف بالكتابة، وغالبًا بالحبّ، أستعيد كلّ ما قاله لي ذلك الرّجل، وهو يُهَيِّئني لزمن كهذا.

ولكنّه هو نفسه لم يعد هنا ليؤكّد لي ذلك. فمنذ اغتيال محمّد بوضياف، وأنا أحاول الاتّصال به دون جدوى.

كان مجرّدُ طلبه هاتفيّاً من قسنطينة أمرًا فيه كثير من المجازفة، وهو ما جعلني أحاول الاتّصال به كلّما وجدتني عند إحدى القريبات، نظرًا إلى كون هاتفي مراقَبًا.. بحكم أنّه هاتف عسكري. وكان هاتف أمّي مراقَباً كذلك، بنيّة التجسُّس على أخبار ناصر وتنقّلاته. وهاتف ذلك الرجل أيضًا موضوع تحت التنصُّتِ، لكونه صحافيّاً وعضوًا في المجلس الاستشاريّ. وهو الأمر الذي زاد من وحدتي، وشعوري بأنّني أعيش قدرًا مضاداً للحبّ، ليس الجانبُ البوليسيُّ سوى أحد أوجهه المخفيّة والمخيفة.

ذات صباح استيقظتُ، وبي رغبة للتحرُّش بالذاكرة. كنت قد تعبت من جثّة الوقت بيننا، بعد أربعة أشهر من الترقُّب. ولم أجد لي سوى مكان واحد قد يوصلني إليه، أو إلى عبد الحق.

وهكذا أخذتُ أكثر قراراتي جنونًا. لبستُ أكثر ثيابي احتشامًا. وغادرتُ البيت دون زينة.. ودون السائق. ولا شيء في حقيبة يدي سوى كتاب هنري ميشو **أعمدة الزاوية**، الذي أخذته معي كي أحتمي به من نظرات الفضول، وأستعين به على انتظارٍ قد يطول. وربّما أيضًا لأجعل ذلك الرجل يتعرّف عليّ إذا ما حضر الى المقهى، ورآني أطالع كتابه الشخصيّ. وهو ما سيوفّر عليّ ارتباك مبادرته بالكلام.

مشيتُ خطواتٍ على قدمي. كدتُ أتوقّف لأشتري جريدة، بعد أن أصبحتْ قراءةُ الجرائد إحدى عاداتي السيّئة، مثلي مثل كل الجزائريّين، الذين يهجمون كل صباح على الجرائد عن ضجر أو عن ذعر، وكأنّ شيئًا ما حدث أو سيحدث.

ولكنْ هذه المرّة عَدَلتُ عن الفكرة، تفاديًا لما قد يلحقني من شبهات أخرى.. إنْ أنا رحتُ أطالعها في مقهًى وظنّ البعضُ أنّني صحفيّة.

سعدتُ وأنا أوفّق، على بعد شارع من بيتي، بسائق أجرة. فطلبت منه بكثير من التودّد إيصالي إلى مقهى «الموعد». شعرتُ أن عليّ أن أثبت براءتي لكلّ من يصادفني.. بدءًا من السائق. فقد كنت أعي تمامًا أنني أقوم بعمل جنونيّ آخر.

في الواقع كنت أملك احتياطيّاً كافيًا من الجنون يبدو أمامه رصيدي من العقل هزيلاً، ورصيدي من الصبر معدومًا. وكنت سعيدة، أن تكون ثروتي لا تتعدّى رواياتٍ أكتبها لنفسي لا تدرّ عليّ أيُّ دخل.. ولكن يتدخل أبطالها في حياتي.. حدَّ احتمال إيصالي الى حتفي!

في ذلك الطابق العلويّ للمقهى، جلستُ أمام أمكنة الحبّ الشاغر. أترقّب رجلاً تعوّدتُ أن أنتظره بصمتي. أعبر الى الوقت من غيابه. أتأمّل طاولة في الزاوية اليمنى، مستعيدةً جماليّةَ ألغام الرغبة، لحظةَ لقاء أوّل.

أكنتُ أنتظره حقّاً؟.. من الأرجح أنّني كنت أنتظر صديقه بحجّة أنّه الرجل الذي سيزوّدني بأخباره.. أو سيوصلني الى عبد الحق.

حتمًا.. كنت موجودة هناك من أجل عبد الحقّ. ولذا وضعتُ كتاب هنري ميشو على الطاولة.. عسى يلحظه إنْ هو حضر.

كان في الطابق السفليّ صَخَبٌ يخفي حزنَ الناس، ويأتي حتّى طاولتي ليُدخل الرعبَ الى قلبي. كيف لا عقل يحرسني

من طيش رغبات صباح بارد، ولماذا بي افتتانٌ برجال مجبولين بالعصيان.. وبأقدار يتعذّر الإمساك بها؟

رحت أحاول تشخيص حالة حبٍّ، تسبقها دائمًا أعراض كتابة، وتليها دائمًا فجيعةٌ ما.

ما الذي جاء بي هنا؟ وأيّ إحساس قادني هذا الصباح في هيئة لا تصلح للقاء، وأجلسني في مناطق منزوعةِ الرغبة، مقابلةٍ لطاولة منزوعة الشهوات؟

إنها حتمًا حاسّتي الكتابيّة السادسة، تلك التي لا تخطئ.. والتي تعدني اليوم بمفاجأةٍ ما.

كانت الأصوات الرجاليّة، التي تصلني بأعداد أكثر كلّما تقدّم الوقت، تزيد رعبي، ولا يقيني منها سوى وجود امرأة ورجل يتحدّثان في زاوية قريبة منّي. ولكنهما لم يكونا على قدر من الطمأنينة، فقد كانا مرتبكين.. وعصبيّين.

ذلك أن الرعب أصبح فجأةً عدوى جماعيّة قابلة للانتقال من شخص الى آخر، ومشهدًا عاديّاً قابلاً للتضخُّم يومًا بعد آخر. وأنت تصغر أمامه، حتى تصبح في حجم حشرة لا تدري في جوف أيّ فريق ستنتهي، وفي أيّة وجبة سيتمّ أكلك، وبأيّة تهمة سيكون قتلك. إنّه المنطق العبثيّ والعشوائيّ للموت، في زمن الحروب غير المعلنة، تلك العبثيّة الموجعة التي اختصرها خليل حاوي في ذلك البيت الجميل:

«كل ما أعرفه أنّي أموتْ

مضغةً تافهةً في جوف حوتْ».

لم يكن في المقهى ما يمكن أن يثير فضولي.

فَرُحْتُ أتأمّل، بين الحين والآخر، شابّاً في مقتبل العمر بهيئة بسيطة، يجلس على بُعد طاولةٍ منّي، يطالع جريدة.

بدا لي أصغر من أن يكون عبد الحق. وبرغم ذلك رحت أسترق النظر إليه في ضجر، رافعةً أحيانًا كتابَ هنري ميشو تمويهًا، أو إشعارًا لغريب قد يحضر. ثم فجأةً، هممتُ بمغادرة المكان يأساً، أو خوفاً، وأفكارٌ بوليسيّة تباغتني، خاصّةً وأنا أتنبّه لوجودي في مقهًى يرتاده الصحافيّون.

ماذا لو كان هذا الشابّ الجالس على بعد خطوة منّي يُخْفي مسدّسًا، ويختفي خلف جريدة تربّصًا بأحدٍ ما؟ فمعظم الاغتيالات ارتكبها شبّان في العشرين يرتادون المقاهي، أو يقفون متّكئين على جدار، وهم يطالعون جريدةً.. في انتظار ضحيّتهم.

كنت أجمع أشيائي مذعورة، وأترك ثمن قهوتي على الطاولة قبل مغادرة المكان، عندما رأيته يفتح الجريدة على صفحة داخليّة ويغرق في قراءة شيءٍ ما.

وإذ بي ألمح في الصفحة الأولى، من تلك الجريدة التي كان يرفعها، صورةً كبيرة، أعرف تمامًا ملامح صاحبها، وفوقها كلمتان بالفرنسيّة مكتوبتان بخطّ أسود كبير..

كلمتان جعلتاني أتسمّر في مكاني ذهولاً.

كنت أتوقع من الموت كلّ شيء.

تقريبًا كلّ شيء، من نوع تلك المفاجآت الدنيئة، التي وحده يتقنها.

ولكنْ هذا الصباح، كانت الجريدة التي لم أشترها تنقل إليّ الموتَ الوحيدَ الذي لم أتوقّعه.

أنحتاج الى موتنا كي نحبّ، ونعرفَ أنّ ثمّة مَنْ أحبّونا؟

فالبارحة فتح ذلك الحوتُ فكّيه، وابتلع لوجبته المسائيّة ـ مِنْ جملة مَنِ ابتلع ـ عبدَ الحق!

أيّ قنّاص سماديّ هو القدر؟ يتّخذ له زاوية منسيّة في حياتنا، ثمّ يأخذ في إطلاق النار، كيفما اتّفق على من أحببنا، دون شعور بالألم.

قطعًا، لم أتوقّع أن تكون لي مع عبد الحقّ مفاجأتان: الأولى موته، والثانية صورته. وكأنّه كان لا بدّ أن يموت، ليصبح أخيرًا رجلاً حقيقيّاً، باسم كامل، ووجهٍ، وملامح، وقصّة حياة.. وقصّة موت.

بالنسبة إليّ كانت القصّة تبدأ من صورته. فأنا لم أنْسَ هذه الملامح التي قضيتُ وقتًا طويلاً ذات يوم في تأمّلها، بإعجاب سرّيّ في هذا المكان نفسه.

أكنت قد جئت إذن هنا، لأنّ الحياة كانت تهيِّئني هذا الصباحَ لمفاجآتٍ قدريّة ظالمة.. في هذا المكان الذي رأيته فيه لأوّل مرّة؟

أجئتُ أشهد غيابه، وأتأمّل طاولته الشاغرة دونه، لأُكْمِل بحضوري دورةَ الفراق.. في قصّة لم يكن فيها سوى لقاءٍ.. وكثيرٍ من صمت الغياب؟

أثناء تفكيري، جاء أحدهم وطلب من ذلك الشابّ الحضور معه.. لأنّهم يحتاجونه في المطبعة.

كان المسكين صحافيّاً إذن.. أو موظّفًا في جريدة. كدتُ أحتضنه وأجهش بالبكاء، لو كنّا بمفردنا. ولكنّني لم أجد في صوتي شجاعةً سوى لطلب تلك الجريدة منه.. فناولني إيّاها.. ومضى.

لم تكن قدماي قادرتين على حملي. فعدتُ وجلستُ مكاني.

هذه المرّة.. لم أكن أجالس وهمًا.. وإنّما ألمًا.

مهملاً كان الحزن في ركن من هذا المقهى.. حيث طاولة مغلقة على سرّها كبيانو تنتظر رجلاً تعوّد أن يأتيها ليكتب. وهي الآن صامتة دونه. وحدها تشاركني الحداد عليه. وتسأل: لماذا اختارها هي دون غيرها؟

أفتح الجريدة على صورته. فتؤلمني الكلمتان على بساطتهما «ADIEU ABDELHAK».

أيكفي أن تضيف كلمة «وداعًا» إلى أيّ اسم.. ليثير فيك كلّ هذا الألم؟(...)

* * *

من بين كلّ الميتات، جاء اغتيال عبد الحقّ، الأكثر صدمةً لي.

هل أكثر ألمًا من أن تدخل حياة أحد، وهو على وشك أن يغادر الحياة؟

هذا الرّجل الذي لا أعرفه، وأعرف كلّ شيء عنه، ماذا يمكن للجرائد أن تضيف إلى معرفتي به سوى تفاصيل موته، التي لا أريد أن أعرفها، والتي نشرتها كلّ الصحافة الوطنيّة في صفحاتها الأولى، بصورةٍ كبيرةٍ له، وتحتها الكلمات نفسها، بلغة أو بأخرى: «وداعًا.. عبد الحقّ»؟

تعوّد الصّحافيّون هنا إنزال صور موتاهم، بالأحجام نفسها، ورثاءَ أنفسهم مسبقًا مع سقوط كلّ صحافيّ جديد.

وعبد الحقّ نفسه لم يخالف القاعدة. ولذا لم يجدوا في الجريدة، التي كان يكتب فيها، أجملَ من أن ينشروا في الصّفحة الأولى ـ جوارَ صورته الكبيرة ـ تلك القصيدة نفسها التي كتبها غداةَ اغتيال صديقه الصّحافيّ والشّاعر الطاهر جعوط، وكأنّه كان يرثي نفسه بها.

ذلك أنّ كلّ التّفاصيل التي تميّز موت عبد الحقّ عن موت صديقه، تبدو مجرّد تفاصيل.

ولم يعد مهمّاً أن يكون الطاهر جعوط قد اغتيل داخل سيّارته حاملاً أوراق مقاله الأخير إلى الجريدة، عندما باغته قاتلوه من الخلف وأطلقوا رصاصتين على رأسه، بينما اختُطِفَ عبدُ الحقّ من أمام مسكن والدته في سيدي المبروك، وكان قد حضر سرّاً ليودّعها قبل سفرها إلى «العمرة» أوّل أمس، وعثروا على جثّته البارحة، مقتولاً برصاصة في الصّدر.. وأخرى في جبينه.

أي أنّه شاهَدَ قاتليه وهم يطلقون النّار عليه، دون أن يتمكّن من الدّفاع عن نفسه، لأنّه قُتِل وهو مغلول اليدين: رُبطتْ يده اليمنى بحزام بنطلونه، واليدُ الثانية بسلك حديديّ، متّصلٍ بالحزام أيضًا. ووُجد منكبّاً على وجهه على حافّة الطّريق.

ربّما يكون قد استعاد، لحظتَهَا، تلك الكلمات الأخيرةَ التي لفظها شي غيفارا وهو يرى جلاّده مصوّباً رصاصَهُ نحوه، غيرَ مصدّقٍ أن يكون ذلك الرّمزُ قد أصبح في متناول مسدّسه، وهو ما جعل «غيفارا» يصيح به: «أطلقِ النّار أيّها الجبان.. إنّك تقتل إنسانًا!». وهي المقولة التي وضعها عبد الحقّ منذ شهرين عنوانًا لزاويته اليوميّة، عند رثائه لصديقه الصحافيّ «سعيد مقبل» الذي لم يتردّد قاتلُهُ في إطلاق النّار عليه وجهًا لوجه وهو يتناول غداءه.

في النّهاية، قضى عبد الحقّ الأشهر الأخيرة في ابتكار ستّ وثلاثين طريقة، لرثاء نفسه. وهي عدد أصدقائه ورفاقه ـ في مهنة المتاعب والمصائب.. والموت ـ الذين سبقوه إلى تلك النّهاية. ولذا لم يعد ممكنًا للموت أن يباغته على الأقلّ في هذا المجال. فأيّةً كانت الطريقة التي سيأتيه بها، فقد استبقه ووَصَفَها. وأيّةً كانت الجهة التي سيأتي منها القتلة فقد استبقهم.. وشَتَمَهم.. وتحدّاهم بما يكفي ليعجّل موته، حاملاً الرّقم 37 في قائمة الاغتيالات التي لا أحد يعلم أين تنتهي.

* * *

عدت إلى البيت محمّلة بأكثر من جريدة باللُّغتين.

ها هوذا عبد الحقّ إذن..! أصبح بإمكاني الآن أن أطالع الجرائد.. وأعرف مَنْ هو.

«هذا السّارق الذي يتسلّل في اللّيل بمحاذاة الجدران عائدًا إلى بيته، إنّه هو.

هذا الرّجل الذي أمنيتُهُ أن لا يموت مذبوحًا. إنّه هو. هذه الجثّة التي يخيطون عليها رأسًا مقطوعًا. إنّه هو.

هذا الذي لا يعرف ما يفعل بيديه.. سوى كتاباته الصّغيرة.

هو الذي يتمسّك بالأمل، ضدّ كلّ شيء؛ ألا تنبت الورود فوق أكوام القاذورات؟

هو الذي كلّ هذا.. وليس سوى صحافيّ».

كنت أحاول أن أكتشف حياته الأخرى باندهاش متأخّر، كمن أحبّتْ رجلاً بالمراسلة، فعرفتْ كلّ شيء عنه، ولم تمنحها الحياةُ فرصةَ التعرّف إليه عن قرب. وها هي تطالع الآن الجريدة كآلاف القرّاء المجهولين الذين يكتشفون هذا الصّباح موتَ رجلٍ لم يلتقوا به.

أمّا هو فلن يعرفها أبدًا.

تلك المرأة التي كان لها في حياته دائمًا، ذلك الحضورُ السّرّيّ النكرة، كيف له أن يدري ماذا فعل بها موتُهُ؟ هي التي عاشت في بيته، ونامت في سريره مع صديقه، وتحدّثتْ مع رجل غيره على هاتفه، وطالعتْ ـ دون علمه ـ كتابًا كان يحمل هواجسه، واستعملتْ عطرًا كان له، وتقاسمتْ معه ـ في عتمة قاعة سينما ـ اشتعالاً مباغتًا للرّغبة، ولحظةَ بكاء، وتبادلتْ معه على بعد طاولة في مقهًى ذبذباتِ حديثٍ لا يقال إلاّ صمتًا!

كلّ هذا، دون أن يتوقّع وجودها في عالمه الحميميّ، على الطّرف الآخر من حياته.

أنحتاج إلى موتنا كي نحبّ.. ونعرف أنّ ثمّة مَنْ أحبّونا؟!

في ذلك المساء، حاولتُ أن لا أطيل النّظر إلى صورته، كي لا أكتشف على شفتيه آثارَ آخرِ امرأة قبّلها، فأحزنَ لها، أو تلك التي كان يمكن أن يقبّلها لو لم يمت، فأحزنَ له.

تحاشيتُ عينيه اللّتين تنظران الآن إلى مكانٍ وحْدَه يراه، وشاربيه اللّذين ـ كأحلامه ـ يرفضان أن يتواضعا حتّى بعد موته.

وبرغم ذلك، وجدتني، بحركةٍ تلقائيّة، أقتطع تلك الصّورة، وأخفيها بين أوراقي.

في البدء، كنت أردت أن أقتطع تلك القصيدة، وأحتفظ بها في الدّفتر الأسود نفسه، الذي يعرف الكثير عن ذلك الرّجل، عندما فاجأني إحساسٌ قديمٌ ومربك. فقد أعادتني تلك الحركة إلى طفولتي البعيدة، إلى ذلك اليوم الذي اقتطعتُ فيه صورة أبي من الجريدة، يومَ تصدّرتْ ـ منذ ثلاثين سنة ـ الصّفحاتِ الأولى للجرائد، بهذا الحجم نفسه، ولكن في حرب كان الغرباءُ فيها هم القتلة، وكان للموت فيها تسميةٌ أجملُ من الجريمة.

أجل «كلّ حرب تغيّر لبعض الوقت تعريفَ الموت، وبهذا تَفْصل بشرخ سرّيّ بين الأجيال».

هِيَذي تلك الصورة، في اصفرارها، معلّقةً أمامي مذ عثرتُ عليها، منذ بضعة أشهر، كما توقّفت عندها نظرة أبي إلى الأبد، يفصلني عنها.. زجاجُ الوقت.

ويفصلها، عن الوقت، تسميةٌ جديدة للموت.

وجوارَها صورةُ عبد النّاصر ذاتها، تلك التي رافقتْ وجودَها في بيتنا دائمًا صورةُ أبي، ولكنْ بحجم أكبر دائمًا. وكأنّها تلخّص في انكسار عنفوانها موتًا أكبر من كلّ الميتات: الموت قهرًا.

لقد كانتا، حتّى الآن، تختصران في حضورهما الصّامت صورَ كلّ الشّهداء، وكلّ القضايا التي آمنتُ بها منذ طفولتي الأولى، دون أن أسأل نفسي لماذا.

تمامًا، كتلك المعتقدات التي نتربّى عليها، ولا نجرؤ على التشكيك فيها.

ولا يعنيني أنْ لم تعد الناصريّة إلاّ في خانة المشاعر، أو في أسماء جيلٍ حَمَلَ، لمصادفةٍ تاريخيّةٍ، اسمَ آخرِ محاربٍ عربيّ.. بروح شاعر.

هل أجمل من أن يكون أبي قد أعطى لابنه الوحيد اسم «ناصر»، قبل أن يستشهد، وأن يكون اسم الابن البكر لمحمد بوضياف هو أيضًا «ناصر».. وأن يكون في مكتبة هذا الرّجل كُتبٌ عن عبد النّاصر، وأن يَتْرك لنا كلُّ الذين يرحلون في فجيعة وطنيّة شيئًا من وهم القوميّة؟

كانت تراودني كلُّ هذه الأفكار، بينما كانت يدي تفكّ إطار صورة، وتضع خلفها ـ بطريقة مستترة ـ صورةً أخرى، بعد أن وجدت أنّها الطريقة الفضلى للاحتفاظ بها حاضرةً وغائبةً في الوقت نفسه، كما كان صاحبها، وتفاديًا أيضًا لما قد يثيره وجودُها في مكتبي من أسئلة.

كنت أستعين بأبي، لأخفي خلفه رجلاً أحببتُهُ. فقد كنتُ أدري أنّه وحده من سيتفهّم هذا. فطالما جاءني الرّجال متنكّرين فيه.

كنت أخبّئ موتًا.. بآخر. وأغطّي وطنًا بآخر. وأخفي تهمة حبٍّ خلف حبٍّ آخر.

وبإمكاني الآن أن أقول، وأنا أرى صورة أبي على مقربة منّي، إنّ رجلاً قد يخفي رجلاً ثانيًا.. وربّما أيضًا رجلاً ثالثًا.. وإنّي وحدي أعرف ذلك!

* * *

في اليوم التالي، استيقظت باكرًا على غير عادتي. والأرجح أنّني لم أنم.

كنت أبحث عن طريقة أعيش بها ذلك اليوم، بما يناسبه من جماليّة الألم.

حاولتُ أن أكتب، فلم أستطع.

كان ذلك الرّجل، الذي اختفى منذ شهرين، قد فرش لي حقولاً من الألغام في كلّ الطّرق المؤدّية بي إلى الكتابة، ونجح في إقناعي بأنّ البياض هو الحدّ الأقصى لأيّة مساحة روائيّة، وأنّه الإنجاز الوحيد في أيّ كتاب، وأنّ كلّ رواية لا بدّ أن تنتهي باحتمالات البياض.

فماذا أفعل إذن؟ وكيف أواجه كلّ هذا «الخراب الجميل» دون قلم؟

أذكر أنّه قال، يوم موت صديقه:

«في زمن النهايات المباغتة، والموت الاستعجاليّ، والحروب البشعة الصغيرة التي لا اسم لها، والتي قد تموت فيها دون أن تكون معنيّاً بمعاركها، الجنس هو كلّ ما نملك لننسى أنفسنا».

سألته يومها:

– والكتابة؟

ضحك وأجاب:

– الكتابة؟ إنّها وهمنا الكبير بأنّ الآخرين لن ينسونا!

فماذا أفعل اليوم بحزني؟

هل أمارس الحبّ إذن؟ ومع من؟ وكيف لي أن آتي المتعة بذريعة موت رجل تمنّيت أن أكون له يومًا.. ولم أكن؟

تلك الرّجولة التي جَلَسَتْ باستفزاز صامت بمحاذاة أنوثتي، تلك التي أردتُها ولو لمرّة واحدة.. استكثرتْها عليّ الحياةُ، وقدّمَتْها وليمةً للديدان.

وذلك الجسد الذي اشتهتْ شفتاي أن تغطّياه قُبَلاً، بعد حين سيغطّيه التّراب. ولم يعد بإمكاني أن أشعله ولو وهمًا.. لقد دخل عالم الصّقيع.

و... «القبر بارد يا أمّي.. أرسلي لي قميصًا من الصّوف»(...)

بيروت